الحركات المناوئة في عهدحكم الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم في رواية أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر

د.فطيمة مطهري*

الملخص:

يتناول هذا المقال الحركات المناوئة للإمامة الرستمية في عهد الإمام الثاني عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، و كان أولها الحركة النكارية والثانية حركة الواصلية (المعتزلة) من خلال كتاب "سير الأئمة و أخبارهم" لأبي زكريا يحيى بن أبي بكر السدراتي الورجلاني، وكيف استطاع عبد الوهاب مواجهة هذه الحركات وإفشالها معتمدا على قبيلة نفوسة، والظاهر أن أبا زكرياء قد أسرف وبالغ في روايته عن القدرات الخرافية التي تميز بها النفوسيون، سواء في فنون الحرب أو في أساليب الجدل و المناظرة.

ويتضح لنا في الأخير الدور الذي لعبته تلك الفرق والحركات وبالخصوص زناتة التي قادت الحركتين النكارية والواصلية والتأثير الإيجابي في إثراء الحركة الفكرية والتجارية من جهة والتأثير السلبي على الجانب السياسي والعسكري حيث أنهكت تلك الحروب امكانيات وقدرات الدولة وتشتت قواها خاصة في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الرستمية.

* - أستاذة باحثة مختصة في التاريخ الاسلامي بجامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، الجزائر.

Abstract:

This article examines the anti-Rustumiyan leadership movements during the rule of the second Imam Abdul Wahab Bin Abdul Rahman ibn Rustam, the first of these movements was Al Nikariah and the second Al Wasiliyah (Al Mu'tazila) based on the book "The conduct of the Imams and their news" of Abu ZakariaYahya bin Abu Bakr Al Sadarati Al Warjalani and How could Abdul Wahab face these movements and make them fail depending on the tribe Nefoussa, and it seems that Aba Zakariya has exaggerated in his version about the mythical capacities of the people of Nefoussa both in the arts of war or in the methods of controversy and debate. and it is clear to us at last the role played by those teams and movements, in particular Zenata which led the two movements Al Nikariah and Al Wasiliyah and the positive impact in enriching the intellectual movement and trade on one hand, and the negative influence on the both political and military sides, for those wars caused the exhaustion of the state's capabilities and the dispersion of its special forces during the last period of Rustumiyan rule.

مقدمة:

لا شك أن سياسة التعايش المذهبي والتسامح الديني التي انتهجها الأئمة الرستميون وبالخصوص الأئمة الأوائل، جعلت من تيهرت مقرا لمختلف الأجناس والمذاهب، فقد عاش في كنفها المعتزلة[1]، و أهل السنة من مالكية

وحنفية، والشيعة والصفرية وأتتها الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار حتى أصبحت تدعى بعراق المغرب[2]، تشبيها لها بالعراق لكثرة الأجناس التي هاجرت إليها، وهذا ما أكده ابن الصغير و هو يتحدث عن عهد عبد الرحمن بن رستم: "ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم، وابتنى بين أظهرهم"[3]، وذكر في موضع آخر أسباب اختيار هؤلاء الوافدين تيهرت دارا لإقامتهم بقوله: "لما يرى من رخاء البلاد، وحسن سيرة إمامه، وعدله في رعيته، وأمانه على نفسه وماله، حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، و هذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين و رحبتهم و هذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين"[4].

لقد عرفت الدولة الرستمية خلال إمامة عبد الرحمن بن رستم والتي دامت أحد عشرة سنة، هدوءا واستقرارا لحسن سيرة إمامته وعدله، فلم ينقم عليه أحد في حكومة ولا في خصومة، ولم يكن على يديه افتراق الإباضية يومئذ كلها مجتمعة مؤتلفة، لم يثر منها ثائر[5].

وهكذا استقرت الأوضاع السياسية الداخلية في عهد عبد الرحمن بن رستم، فلم ينقم عليه أحد لا من الإباضيين و لا من غيرهم من معتنقي المذاهب الأخرى[6]، إلا أن هذا الاستقرار لم يستمر ليشمل عهد الإمام عبد الوهاب إذ ظهرت حركات مناوئة ذات الطابع المذهبي وهو ما سماه كل من أبي زكرياء والدرجيني بالافتراق في الاباضية، فكان الأول على يد حركة النكار و الثاني على يد الواصلية، فهل سياسة التسامح والتعايش المذهبي هي التي كانت سببا في إثارة هذه الحركات المعارضة أم هناك أسباب و دوافع أخرى؟ و كيف استطاع الإمام عبد الوهاب إحباط وإفشال هذه الحركات؟ و ما مدى تأثير الفرق والمذاهب على الحياة العامة الداخلية للإمامة الرستمية؟

قبل الإجابة على هذه الأسئلة و أخرى علينا و لو بصورة مختصرة الترجمة للمؤلف و التعريف بكتابه

أولا- التعريف بأبي زكرياء يحي بن أبي بكر و مؤلفه:

هو أبو زكرياء بن أبي بكر السدراتيالورجلاني، و من الكتب الإباضية التي تعرضت لسيرة أبي زكرياء، كلها تعود إلى أصل واحد و هو طبقات أبي العباس للدرجيني و التي كما ذكر اسماعيل العربي لخصها الشماخي تلخيصا جيدا و لا نضيف إليها شيئا يذكر[7]، و صنف الدرجيني أبا زكرياء ضمن علماء الطبقة العاشرة (450هـ/ 500هـ) مع أخيه زكرياء و مع أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي المتوفي سنة 471هـ وهي نفس السنة التي توفي فيها أبو زكرياء، وأبي سليمان يوسف[8]، والملاحظ أن اسماعيل العربي محقق كتاب سير الأئمة اكتفى هو الآخر ينقل ما جاء به الدرجيني في ترجمته لأبي زكرياء يحي وأخيه زكرياء بقوله: "ومنهم أبو زكرياء يحي بن أبي بكر وأخوه أبو زكرياء يحي، كانا من الأفاضل المقتفين آثار الأوائل، لم تزل نفس الديانة بحياتهما حية، و طرق البرناهجة و طلب علوم المذهب وسير من تنسك أو ترهب، و لهما في علوم النظر أطول باع بأدلة ذات اقناع، و حجج تملأ القلوب و الأسماع وتغني عند المحاضرة ما لا تغني المشرفية عند القراع، و كانا مراد الفارين مع تباعد الدارين[9]، ذكر عنه أيضا أنه كان كثيرا ما يردد قول يحي بن معاذ الرازي، للتوبة ثلاث مقامات، الذم والاستغفار والحقيقة، فالندم عند التحول والشعور بمرارة المعاصي، والاستغفار طلب الغفران بصحة الارادة، و الحقيقة التوبة إلى الله عز وجل، فآفة الندم الأمل، و آفة الاستغفار الغفلة، و آفة الحقيقة الشهوة[10].

أما كتاب سير الأئمة وأخبارهم فقد كان المصدر الأساسي الذي استقى منه الدرجيني مادة طبقاته، و كذلك استفاد منه أبو الربيع الوسياني، والشماخي بدوره يأخذ الكثير بواسطة طبقات الدرجيني، واستفاد منه أيضا سليمان الباروني خاصة في الجزء الثاني من كتابه "الأزهار الرياضية"[11] أما هو فاعتمد بدوره على عدد من المؤرخين الإباضيين، عبر عنهم بقوله: "ذكر بعض أصحابنا"، ومنهم الراوي و المؤرخ الإباضي أبو الربيع سليمان بن يخلف وغيرهم من المؤرخين كابن الصغير و الرقيق القيرواني في حادثة دخول الإباضيين إلى القيروان. كما يعتبر هذا الكتاب المصدر الإباضي الأول والوحيد الذي يمكن بواسطته دراسة تاريخ الدولة الرستمية[12] باعتبار ابن الصغير مالكيا وليس إباضيا.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية سنة 1878 من طرف ماسكاري تحت عنوان "تاريخ أبي زكرياء"[13]، فاستفاد منه المؤرخون الأوروبيون حيث أخذوا منه مادتهم الأساسية خاصة فيما تعلق بتاريخ تيهرت بالرغم من أن ترجمة ماسكاري اعتبرها البعض جزئية و رديئة وناقصة و لم تكن في المستوى المطلوب[14]، إلا أن جوتيه تحدث عن الكتاب باستغراب: "إنه من الأشياء المحيرة للعقل أن لا نعرف كتابا عربيا في التاريخ إلا عن طريق ترجمته"[15].

أما محتوى الكتاب، فيعرف في البداية بمراكز اشعاع المذهب الإباضي (قنطرارة، قفصة، ورجلان، تيهرت) كما يترجم لعدد كبير من أئمة و أعلام المذهب و مشائخه، زودنا بمعلومات مفصلة عن ثورة أبي يزيد الخارجي (صاحب الحمار) لا تفوقها في التفاصيل سوى رواية ابن الأثير[16]، يروي لنا أيضا عن العبيديين و يصفهم بأنهم أعداء الله[17]، وعن مقاومة الإباضيين لهم و ثورة أبي المخلد بن كيداد، و على العموم يعتبر ما ذكره أبو زكرياء عن الأئمة الرستميين وعن عاصمتهم تيهرت أغنى و أدق ما وصلنا من معلومات عن هذه

الدولة رغم أنه لا يعطينا الصورة الكاملة لتيهرت في أيامها الأخيرة، قبل أن يدمرها العبيديون.

ثانيا- حركة النكارية[18] و ثورة يزيد بن فندين اليفريني[19]:

وهي ما عرفت في المصادر الإباضية بأول افتراق في الإباضية و كان السبب في رواية أبي زكرياء[20] أن عبد الوهاب لما كانت رغبته في أهل الخير و استعمال أهل العلم و البصيرة من الدين في أمور المسلمين، فعمد إلى رجال ليست لهم رغبة في الولاية فولاهم الأمور[21]، و لما رأى ذلك بن فندين و أصحابه و تحققوا مخالفة ما يرجونه من إيثاره إياهم، تغيرت و تنكرت قلوبهم و قالوا غنما كانت ولاية عبد الوهاب على شرط أن لا يقطع أمرا دون جماعة معلومة[22]، و أشاعوا أنه حابى عليهم بعض الناس، و ولاهم الأمور دونهم، و هم يزعمون أنهم هم أولى من سواهم، وأنه لا ينبغي أن يلي أمر جماعة المسلمين أحد إذا كان في الجماعة من هو أعلم منه فتفاقم أمرهم، و كثر النزاع وانتشر الخلاف في البلاد[23].

وأصبح ابن فندين و أصحابه يتربصون و يترقبون الفرصة للإغارة على المدينة، و كان الإمام قد أمر رعيته بإمساك السلاح، فكانوا لذلك حتى خرج الإمام ذات يوم إلى حاجاته، فبادر ابن فندين و أصحابه الهجوم على المدينة على غفلة من أهلها، فابتدرهم الناس من كل مكان، قيل فضرب أفلح بن عبد الوهاب ابن فندين بسيفه فأوقعه صريعا و قتل معه جماعة كثيرة بلغ عددها اثني عشر ألفا، و جرى الدم على باب المدينة كالسيل من كثرة القتل[24].

واصل الإمام عبد الوهاب في مواجهة النكار بعد مقتل زعيمهم ابن فندين خاصة بعدما غدروا بابنه ميمون وشنعوا في مقتله، حيث أنفذ إليهم

جيشا أمر عليه ابن ميمون، فقاتلهم وهزمهم، قتل منهم عددا كبيرا حتى عجز الناس عن إحصائه و تعداده[25].

ثالثا- محاربة الواصلية[26] للإمام عبد الوهاب:

لقد استطاع واصل بن عطاء نشر مذهب الاعتزال في مختلف أنحاء العالم الاسلامي حيث بعث بعدد من رجاله إلى اليمن و الجزيرة وأرمينية لنشر المذهب فأحل به خلق كثير، و كان يقول واصل بالمنزلة بين المنزلتين: "أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا و لا كافر مطلقا، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن و لا كافر، ثم اعتزل في جانب المسجد، فقال الحسن البصري: "اعتزل عنا واصل"[27]، و فيما يتعلق بانتشار المذهب في بلاد المغرب، فتشير المصادر أن جماعة من بربر زناتة، اعتنقت الواصلية ذلك أن واصل بن عطاء بعث عبد الله بن عبد الله بن الحارث إلى المغرب، ويبدو أن انتشاره كان واسعا في المغرب الأوسط بين قبائل زناتة حيث ذكر البكري: "أن مجمع الواصلية في عهد الرستميين كان قريبا من تاهرت، و كان عددهم نحو ثلاثين ألفا في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها[28]، و كان أول ظهور لهم على مسرح الأحداث في تيهرت في عهد الإمام عبد الوهاب، حيث كان قيام الواصلية المعتزلة على عبد الوهاب فكيف تفاعلت الأحداث؟ و ما هي أسبابها؟ و كيف كانت نتائجها وتأثيراتها؟

الواصلية بعضهم من العرب النازحين من المشرق، أما غالبيتهم فمن قبائل زناتة[29]، فقد نجحوا في إثارة بطون زناتة ضد عبد الوهاب، الذي امتدت سيطرته إلى مدينة تلمسان[30].

لقد تحركت الواصلية حين أحسوا ببعض الفرقة في الإباضية و أرادوا أن ينتهزوا بعض الفرصة، فانحازوا عن تيهرت و اجتمعوا خارجها فأظهروا

مخالفة الإمام و هددوا بالقضاء على الإمامة الرستمية[31] حوالي 195هـ/ 811م[32]، و كان فيهم رجل ينتحل المناظرة فجرت بينه و بين عبد الوهاب، مساجلات كلامية و مناظرات كثيرة، تلتها معارك حربية كان الظفر فيها للواصلية، حيث كان الشاب الواصلي ابن سيدتهم وعمدتهم معروفا بالشجاعة لا يدرك أحد إلا قتله و لا يبارزه أحد إلا قتله، و كان أبوه حرضه على القتال بقوله: "أقدم أي بني"[33].

فلما رأى عبد الوهاب ما نزل به منهم اضطر إلى عقد الهدنة و أجل لقاء المعتزلة و في نفس الوقت بعث إلى أتباعه بجبل نفوسة طالبا المدد[34]، فلماذا يلجأ عبد الوهاب إلى قبيلة؟ لأن هذه القبيلة القوية ظلت مخلصة للرستميين و لت تفكر أبدا في الاستقلال عنهم، فكانت هي القوة الرادعة في الاقليمين (تيهرت و الجبل) لكل تمرد أو ثورة قامت هنا أو هناك، و هذا ما أكده الإمام عبد الوهاب نفسه بقوله: "إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسة..."، وقول عبد العزيز بن الأوز (أحد فقهاء تيهرتالإباضيين): "الله سائلكم معاشر نفوسة إذا مات واحد جعلتم مكانه آخر و لم تجعلوا الأمر للمسلمين..."[35].

ويدعم ما ذهب إليه ابن الصغير بذكر لصرخة ابن الأوز جاء عن أبي زكرياء و الدرجيني، أن نفوسة بلغت في التأييد لسلطة الرستميين بأرض تاهرت مبلغا عظيما لم يبلغه غيرهم من مغربنا هذا"[36].

وبوصول هؤلاء الأربعة النفوسيين[37]، بدأت المرحلة الأخيرة من المواجهات بين أنصار المذهبين، حيث جمع الأإمام أتباعه و سار نحو أعدائه الذين استعدوا بدورهم للقائه، و لما التقى الجيشان اعتذر عبد الوهاب إلى المعتزلة و دعاهم إلى ترك ما به ضلوا، فأبوا إلا مناصبته و سألوه المناظرة[38]، واصطف كل فريق في مواجهة الفريق الآخر، وأخرج كل منهما مناظرا، مهدي النفوسي و الفتى المعتزلي، فجرت بينهما وجوه من المناظرة و الناس يعلمون ما

يقولان، فلم يغلب أحدهما الآخر، ثم دخلا في فنون العلم، فخفي ذلك عمن حضرهما غير أن الإمام يفهم ما يقولان، ثم دخلا في وجوه من المجادلة لم يفقهها أحد و لا الإمام، و انتهت المناظرة بتفوق مهدي النفوسي على الفتى المعتزلي[39]، عندئذ أطرح الفريقان مبارزين هما أيوب بن العباس و ابن رئيس المعتزلة الموصوف بالشجاعة و الذي طلب المبارزة فكانت نهايته أنه قتل على يد أبي العباس، و بعدها جاء دور الجيشين، فاشتبكا في معركة حاسمة اشتد القتل فيها في المعتزلة إلى نهايتها لصالح الإباضيين[40]، فوضعت الحرب أوزارها و دخل المعتزلة في طاعة الإمام[41]، و هدأت له الأحوال لذلك أراد أن يحج[42]، مع احتفاظ المعتزلة بمعارضتهم السلمية للرستميين و التي عبروا عنها بمناظراتهم مع الإباضيين، وبخروجهم مع المعارضة لاستقبال أبي عبد الله الشيعي سنة 297هـ[43].

أما أسباب قيام هذه الحركة المناوئة للإمام عبد الوهاب فهي عديدة نجملها في النقاط التالية:

- اعتقادهم بخروج الإمام عبد الوهاب على الشريعة واغتصابه الإمامة قسرا، ولو صح ذلك فالراجح أنهم تذرعوا بهذه الدعوى اخفاء لمطامعهم في الانفصال عن الحكم الإباضي وإنتهاز فرصة انشغال عبد الوهاب بمواجهة حركة النكار لتحقيق هذه المطامع[44].

- سياسة عبد الوهاب القائمة على المحاباة، مما زاد في التنافر بين الواصلية و الإمامة الرستمية ذلك العداء التقليدي بين الخوارج و المعتزلة الناجم عن الخلاف الفكري بينهم، و الخلاف القبلي أيضا، فمن المعروف أن قبيلة لواتة الإباضية كانت على عداء مرير لبعض بطون زناتة الواصلية[45].

- كما كان تمرد الواصلية احتجاجا على موقف الرستميين من الإمامة و صراعا بين طبقة فقيرة محرومة (الأعراب) و طبقة غنية متمثلة في الرستميين[46].

- و هناك من يرى بوجود دور للأدارسة[47] في تحريك هذه الثورة و منهم محمود اسماعيل الذي يميل إلى وجود صلة للأدارسة بحركة الواصلية فيقول: "وفضلا عن إغارات بني يفرن و مغراوة الذين تخلوا عن مذهب الخوارج ودخلوا في طاعة الأدارسة على الأطراف الشمالية للدولة الرستمية، حرص الأدارسة على إثارة العراقيل في تاهرت نفسها، و لا يخامرنا شك في أن إدريس الثاني كان من وراء تمرد الواصلية على عبد الوهاب بن رستم سنة 195هـ، فمن المعروف أن طنجة كانت معقلا لواصلية المغرب، و أن أوربة كانت عصب دولة الأدارسة، وأن ولاء زناتة الغرب تحول إلى بني إدريس، وبديهي ألا تقطع الصلة بين الواصلية الضاربين خارج تاهرت و بين معاقلهم في دولة الأدارسة، وليس غريبا إقدام الأدارسة على استغلال هذه الصلة في إثارة العراقيل أمام خصومهم من بني رستم، مصداقا لذلك قول أبي زكرياء: "فتكاتفت كلمة الواصلية واجتمعوا من كل نقب، وجاءوا من كل أوب...وأظهروا مخالفة الإمام"[48].

- و يقول محمود اسماعيل في موضع آخر: "و ليس من المستبعد أن يكون عزمهم (الواصلية) في الخروج من حكم الإمام تمهيدا للانضمام لإخوانهم بدولة الأدارسة"، و يستدل على ذلك بما أورده الدرجيني من أن حركتهم لم تقتصر على واصلية الدولة الرستمية فحسب بل ضمت كافة عناصرهم "من كل أوب"[49].

- أما محمد بن عميرة فهو يستبعد وجود أي صلة بين حركة الواصلية و الأدارسة و يؤكد على ضرورة البحث عن العلاقة بين زناتة التي حاربت

الرستميين على الدخول في طاعة الأدارسة كما ذكر ابن خلدون[50]، و زناتة الواصلية التي حاربتهم في عهد عبد الوهاب مثلما ذكرت المصادر الإباضية، فهي عندما تتحدث عن حرب الرستميين مع الواصليين الذين كانت غالبيتهم من زناتة،لم تتعرض للهدف الذي كان هؤلاء الواصليين يسعون إلى تحقيقه من وراء مناظراتهم و مبارزاتهم للإباضيين، و ليس هناك دليل على وجود أية صلة للأدارسة بتلك الحرب[51]، كما أن ابن خلدون الذي يشير إلى حرب بني يفرن و مغراوة على بني رستم كي يدخلوه في طاعة الأدارسة، لم يذكر ما يدل على انتماء بني يفرن ومغراوةللواصلية، في حين يذكر من جهة أخرى أن عبد الوهاب كان رأس الإباضية و الصفرية والواصلية، و كان أتباعه من الواصلية وحدهم ثلاثين ألفا ظواعن ساكنين الخيام[52]، و لم يشر إلى الحرب التي دارت بين الواصلية و الإمام عبد الوهاب[53]، و لكن حسب محمد بن عميرة أن نزول إدريس بن عبد الله على اسحاق بن محمد الأوربي المعتزلي جعل الأأول يعطف على واصلية المغرب الأوسط و يحسن علاقته بهم، فما عدا هذا الاحتمال ليس هناك ما يدل على أن الأدارسة كان لهم أي دور في الحرب التي دارت بين الرستميين و زناتة الواصلية التي لا يستبعد أن تكون هي نفسها التي حاولت إرغام الرستمييناالوهبيين على الدخول في طاعة الأدارسة السنيين[54].

وما نستنتجه أنه بالرغم مما قامت به الواصلية من دور معاد لأئمة بني رستم، و تمردهم في عهد الإمام عبد الوهاب فلم يتوقفوا إلى أي نوع من الاضطهاد المذهبي، بل بالعكس حظوا بتسامح ديني إلى أبعد الحدود، و يدل على ذلك ما كان يجري بين شيوخهم و زعماء الإباضية من مناظرات و محاورات على غرار ما كان يحدث بالمشرق بين زعيمهم واصل بن عطاء و بين أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة شيخ إباضية المشرق.

رابعا- تأثير الفرق و المذاهب على الحياة العامة للرستميين:

و يظهر التأثير الإيجابي جليا خاصة على المجالين الفكري و الاقتصادي

1- المجال الفكري:

كان لحلقات المناظرة دور كبير في ازدهار الحياة الفكرية، فقد ساهم الأئمة أنفسهم إدارة الحلقات العلمية بحكم أنهم علماء لأن من بين شروط الإمامة العلم، و لما كان الرستميون يهدفون إلى ترسيخ مبادئ الإباضية في أذهان الناس، فقد كانت حلقاتهم العلمية تلقن فنون الرد على المخالفين و هذا دليل على سعي الدولة الرستمية لتهيئة أهل العلم لمناظرة الآخر[55]، والمناظرة تتطلب التسلح بالعلم و المعرفة و الحجة والاقناع وهو ما دفع بالإباضية إلى الاجتهاد و في طلب العلم وتيسير سبله، فكان ذلك من عوامل تطور العلم و المعرفة، و جعل من تيهرت مركز اشعاع ثقافي.

ومن خلال المصادر تبين لنا أن أهم و أكبر المناظرات الفكرية جرت بين علماء الإباضية والمالكية والمعتزلة.أما تلك الخاصة بالمعتزلة، فنستنتج من المصادر الإباضية أن الإمام عبد الوهاب بنفسه لم يستطع محاجاته و التغلب عليه في كثير من المسائل الجدلية المتعلقة بالعقائد و الشرائع بدليل استعانته بمشائخ المذهب النفوسيين في هذه المناظرات[56]، و كانت المعارك الجدلية بين الإباضية والمعتزلة لا تكاد تفتر، و مع ذلك كما ذكرنا نعم المعتزلة في العهد الرستمي خاصة الأخير بتسامح كبير[57]، فكانوا يلتقون في مساجلات مشهورة على نهر مينة خارج تيهرت، و أورد ابن الصغير مناظرة في عهد أبي اليقظان فقال: "اجتمعت المعتزلة و الإباضية بنهر مينة لموعد جعلوه فيما بينهم للمناظرة و كان قطب الإباضية و المدافع عن مذهبهم و يدعى عبد الله بن اللمطي، و كان يرد على الفرق في مقالاتهم و يؤلف الكتب في الرد على مخالفيهم[58]، كما ناظر الإباضيون علماء المالكية في مسائل العقيدة والشرع في

جو من التسامح والحرية تحدث عنها ابن الصغير المالكي، وهو نفسه تناظر مع سليمان الهواري المكنى بأبي الربيع و هو إباضي في قضية فقهية[59].

وقد أسفرت هذه الحرية الفكرية وتعدد حلقات المناظرة والجدل عن نشاط حركة التأليف فكثر وضع الكتب للرد على المخالفين، وممن ساهم في هذا النوع الإمام عبد الوهاب بكتاب "مسائل نفوسة" والإمام أبو اليقظان الذي كان له في الرد على المخالفين كتب كثيرة بليغة شافية.[60]

2- المجال الاقتصادي:

ومن الآثار الإيجابية للتسامح المذهبي و عدل الأئمة الرستميين استقطاب تيهرت للتجار من غير الإباضية من مختلف بلدان العالم الاسلامي من القيروان، الأندلس، سجلماسة، السودان الغربي، و من المشرق الاسلامي حيث حظو بحرية المتاجرة في أسواقها، مما أدى إلى ازدهار حركة التجارة، خاصة و أن الدولة الرستمية و تيهرت العاصمة كانت تشكل مركزا تجاريا، ونقطة التقاء القوافل التجارية من شتى المدن المغربية.

وكانت شهرة تيهرت و عدل أئمتها و ترحيبهم بالتجار مما جلب كثيرين من هؤلاء التجار إلى الإقامة في تيهرت، لهذا حفلت بالتجار المياسير و الأغنياء لأن العدل و الأمن على النفس والمال يجتذب أصحاب رؤوس الأموال[61]، كما أن التنظيم المالي الإباضي الذي لا يقبل جباية الضرائب على المتاجر باعتبارها مغارم من الأسباب التي شجعت التجار على ارتياد تيهرت الرستمية[62].

إن تعدد الفرق والمذاهب و كثرة العلماء أدى إلى كثرة مجالس المناظرة، و الدخول في الجدل مع الآخر يتطلب علما و فقها كبيرين، مما جعل الرستميين يولون اهتماما كبيرا للتعليم، و اقتناء الكتب في مختلف العلوم فازدهرت بذلك الحركة العلمية في الدولة الرستمية.

كان لوجود الفرق والمذاهب تأثير إيجابي في الحياة الفكرية و الاقتصادية في الدولة الرستمية، و كان التسامح الديني و التعايش المذهبي أحد العوامل الرئيسية في ازدهار هذين الجانبين، أما عن الجانب السياسي فقد كان للفرق تأثير سلبي و لكن لا يمكننا التأكيد بالقول بأنهم كانوا السبب في سقوط الدولة و لم تتدخل في شؤونها الداخلية إلا عندما وجدت الفرصة والمتمثلة في الاضطرابات والفتن، فما قيام الواصلية بمحاربتها وخروجها على الإمام عبد الوهاب إلا بعدما أنهكت حروب النكار الدولة، و ما نجاح العبيديين في اخضاع تيهرت و الاستيلاء عليها إلا بعدما ضعفت الدولة لكثرة الفتن و تفكك السلطة و الإمامة الرستمية.

الخاتمة:

وصفوة القول أن الإمام عبد الوهاب كان كما أشارت إليه المصادر يسهر بنفسه على أمن المجتمع في العاصمة تيهرت و يتفقد رعيته، وكانت قبيلة نفوسة تقوم إلى جانبه بالدور الأول في السهر على الحياة الاجتماعية اليومية في عاصمة الدولة، فهي التي كانت تلي عقد تقديم القضاة وبيوت الأموال و إنكار المنكر في الأسواق والاحتساب على الفساق، فكانت هذه القبيلة قوة اجتماعية مصلحة، و أصبحت سيف الدولة و درعها الواقي، وبفضلها قضى الإمام عبد الوهاب على الحركة التمردية النكارية، و حارب بها أيضا الواصلية المعتزلة فتغلب عليها، ويعترف هو نفسه بذلك بقوله: "ما قام هذا الدين إلا بسيوف نفوسة..."، و الملاحظ أن عبد الوهاب بعد هزمه للواصلية هدأت له الأحوال وقضى بقية أيامه في تيهرت في هدوء فلم تزعجه ثورات كالتي قامت في بداية حكمه والتي لعبت فيها زناتة دورا هاما، فزعيم النكار "ابن فندين" كان زناتيا و يتمتع بعصبية قوية في قومه، كما أن أغلبية الواصلية كانوا من زناتة

لكن بعدما تولى الإمامة ابنه أفلح استطاع أن يبقى في الحكم خمسين عاما عرف خلالها كيف يبعد خطر القبائل القوية المنتشرة حول مدينة تيهرت، و كسب ود و ملاطفة القبائل و على رأسها زناتة إلى أن توفي.

الهوامش:

1. المعتزلة: هناك من أطلق تسمية الاعتزال على الفئة التي وقفت على الحياد في الفتنة الكبرى سواء في معركة الجبل أو معركة صفين، و هناك من أرجعها إلى اعتزال قول الأمة أي أهل السنة و الجماعة، إذ اعتبروا أن الفاسق من المسلمين لا مؤمن و لا كافر بالقول المنزلة بين المنزلتين، و في الفهرست يرجع التسمية إلى اعتزالهم أقوال الخوارج و المرجئة و الإباضية في صفة مرتكب الكبيرة من حيث الشرك و الكفر و النفاق و الإيمان بقولهم بأن مرتكب الكبير فاسق و هي الصفة التي أجمعت عليها هذه الفرق، و قد ذهب بعضهم إلى القول بأن الاعتزال يعني الأخذ بموقف الحياد من الفتنة فهو موقف سياسي عكس حالة دينية، حنا فاخوري و خليل الجم: تاريخ الفلسفة العربية، ط1، دار الجيل، بيروت، 1993، ج1، ص140، النديم: الفهرست، ضبط وشرح يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1996، ص282،

D.Sourdel et J.Sourdel, la civilisation de l'islam classique, edition Narchaud, paris 1983, p 139.

و نشأت المعتزلة بالبصرة، ثم انتشرت في كامل بلاد العراق، ودخلت بلاد المغرب في أوائل القرن 2هـ/ 8م، تزامنا مع المذاهب الأخرى الإباضية و الصفرية، علي الشابي و حسن أبو ليا و عبد المجيد النجار: المعتزلة بين الفكر و العمل، الشركة التونسية للتوزيع 1986، ص25، محمد أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي، دار المعرفة الجامعية، ط4، 1986، ص267،

2. Badawi, histoire de la philosophie en islam, paris, 1978, p.p 35- 37

3. القاضي عياض: ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1967، ج1، ص90.
4. اليعقوبي: البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص192.
5. ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر و ابراهيم بحاز، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1986، ص36.
6. نفسه، ص نفسها.
7. أبو زكرياء يحي بن أبي بكر: سير الأئمة و أخبارهم، تحقيق اسماعيل العربي، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1982، ص83.
8. فوزية لزغم: مجلة الخلدونية، كلية العلوم الانسانية و العلوم الاجتماعية، جامعة ابن خلدون، تيارت، عدد خاص، أكتوبر 2009، ص64.
9. أبو زكرياء يحي : المصدر السابق، ص23، الشماخي...
10. سليمان الباروني : الأزهار الرياضية ....، ج2، ص613.
11. أبو العباس الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق ابراهيم طلابي، ط1، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، د.ت، ج2، ص448.
12. أبو العباس الدرجيني: المصدر السابق، ص-450-451.
13. أبو زكرياء يحي: المصدر السابق، ص28.
14. نفسه، ص نفسها.
15. Emil Masqueray : La chronique d'Abou Zakaria, Alger, 1878.
16. أبو زكرياء: المصدر السابق، ص 28-29.
17. Gautier (F): Le passé de l'afrique du nord, editionpayot, paris 1954, p6.
18. أبو زكرياء: المصدر السابق، ص34.
19. نفسه، ص نفسها.
20. اجتمعوا لإظهار انكار إمامة عبد الوهاب فسموا "النكار" و كانوا يجتمعون و يتناجون بالاثم و العدوان لذلك سموا "النجوية" و أدخلوا بذلك شغبا إلى الاسلام فسموا "الشغبية" ثم ألحدوا في أسماء الله تعالى فسموا "الملحدة"، كما

سموا أيضا "النكاث" لنكثهم البيعة بغير حدة، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص51، الشماخي: المصدر السابق، ص150، أبو زكرياء: المصدر السابق، ص 92-93.

21. هو أبو قدامة يزيد بن فندين و هو من بين السبعة الذين جعل فيهم عبد الرحمن بن رستم الإمامة شورى عندما حضرته الوفاة على ضيع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى جانب مسعود الأندلسي، و ابنه عبد الوهاب، أبو زكرياء: المصدر السابق، ص84.

22. تختلف هذه الرواية عن رواية ابن الصغير اختلافا كبيرا إذ يذكر ابن الصغير أن سبب فتنة النكار هو أن الرعية ساءت وضجت من قاضيها الحائر و صاحب بيت مالها الخائن و صاحب شرطتها الفاسق، و لما طلبت من الإمام عزلهم و تولية خيارهم عليهم تردد الإمام و تراجع في حكمه بعد ما كان قد أبدى موافقته على العزل، و لهذا كان رد فعل النكار الخروج من المدينة إلى المنازل بجبال المدينة في مكان يعرف بالكدية (مكان مرتفع في تيهرت) و المعروفة بكدية النكار و حلفوا ألا يدخلوا الحرب أو يعزل ما سألوا عزله، ابن الصغير: المصدر السابق، ص44.

23. أبو زكرياء يحيى: المصدر السابق، ص 88-89.

24. هناك من يرى أن الغيرة هي التي دفعت ابن فندين إلى اتخاذ هذا الموقف، لأن الناس لم يرشحوه للإمامة و رشحوا عبد الوهاب و مسعود الأندلسي و لما رأى ابن فندين أنه لاحظ له في الإمامة، اشتدت رغبته في تولية عبد الوهاب رجاء أن يدرك في ظله بعض المناصب العالية و أن يقلدهم الأمور اعتمادا على علاقة النسب التي بينهما لأنه من أخوال عبد الوهاب فوالدة عبد الوهاب يفرينية، غير أن خوف ابن فندين و من معه من عدم بلوغ غايتهم دفع ابن فندين إلى وضع الشرط، سليمان الباروني: الأزهار الرياضية، ج2، ص100.

25. أبو زكرياء: المصدر السابق، ص89، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 48-49.

26. أبو زكرياء: نفسه، ص96، الدرجيني: نفسه، ص54- 55، الشماخي: المصدر السابق، ص146، سليمان الباروني: المرجع السابق، ج2، ص102.

27. أبو زكرياء: نفسه، ص98-99، الدرجيني: نفسه، ج1، ص56.

28. الواصلية هي مذهب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال الألثغ (80- 171هـ/ 699- 790م) و هم من المعتزلة حيث يقول الشهرستاني: "الواصلية أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال الألثغ، كان تلميذا للحسن البصري، يقرأ عليه الأخبار والعلوم...، الشهرساني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة للطباعة و النشر، بيروت، 1980، ج1، ص46، ولد واصل بن عطا بالمدينة المنورة و نشأ بالبصرة، و كان ممن بايع لمحمد بن عبد الله بن الحسن و له مؤلفات عدة منها: "المنزلة بين المنزلتين"، "أصناف المرجئة"، أبو زكرياء: المصدر السابق، ص101، أحمد أمين: ضحى الاسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، 1900، ج3، ص 92- 93.
29. الشهرستاني : المصدر السابق، ج1، ص46.
30. أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر افريقية و المغرب، نشر ديسولان، باريس 1965، ص67، ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1995، ج2، ص8.
31. أبو زكرياء: المصدر السابق، ص102.
32. فوزية لزغم: الخلدونية، المرجع السابق، ص64.
33. أبو زكرياء: المصدر السابق، ص102، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص57.
34. محمود اسماعيل: المرجع السابق، ص21، أبو زكرياء: نفسه، ص نفسها.
35. الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص57، أبو زكرياء: نفسه، ص نفسها.
36. نذكر رواية أبي زكرياء : طلب الإمام من أهل نفوسة أن يبعثوا له جيشا نجيبا يكون فيه رجل مناظر عالم بفنون الرد على المخالفين، و رجل عالم بفنون التفاسير و آخر شجاع يستعد لمبارزة الفتى الواصلي، فبعثوا له بأربعة نفر فقط أحدهم للمناظرة وهو مهدي الويغري، و الثاني لتفسير القرآن و هو محمد بن يانس، و الثالث للمبارزة و هو أيوب بن العباس و الرابع للمحاجاة في المسائل الفقهية قيل اسمه محمد أبو محمد فارس، وقيل أبو الحسن الابدلاني، أبو زكرياء: نفسه، ص102، الدرجيني: نفسه، ج1، ص- ص 87- 58، و روايته أن أهل الجبل بعثوا بأربعة أشخاص فقط كفوه عن الجيش الذي طلبه عبد الوهاب منهم، فهي غير مقبولة لهذا لم يستبعد محمد بن عميرة أن عامل

نفوسة لبى طلب عبد الوهاب و أرسل له جيشا مختارا بقيادة البطل أيوب بن العباس، أو أحد الأشخاص الأربعة أو كلهم، و تكون في هذه الحالة شهرة هؤلا طغت على أخبار بقية الجيش التي اختفت بالتدريج إلى أن انقطعت قبل أن تسجل في كتب التاريخ، محمد بن عميرة: المرجع السابق، ص130.

37. ابن الصغير: المصدر السابق، ص61، ابراهيم بحاز: الطبيعة العامة للحكم عند الرستميين، الخلدونية، ص46.
38. أبو زكرياء : المصدر السابق، ص150، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص87، و للمزيد عن دور نفوسة في تأييد الحكم الرستمي والدفاع عن بقائه، ينظر ابراهيم بحاز: المطبعة العامة، الخلدونية، المرجع السابق، ص46.
39. للمزيد عن سبب إرسال عامل نفوسة بأربعة نفر فقط رغم أن الإمام طلب جيشا نجيبا، ينظر، محمد بن عميرة: زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الاسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص130.
40. أبو زكرياء: المصدر السابق، ص 107-108.
41. نفسه، ص نفسها، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص61-62.
42. أبو زكرياء: نفسه، ص109.
43. فوزية لزغم: الخلدونية، المرجع السابق، ص64.
44. عندما يتخلص الإمام عبد الوهاب نهائيا من الحروب الأهلية تفرغ عدة سنوات للعلم و تطوير المذهب الإباضي تاركا أمور الدولة لابنه أفلح، محمد بن عميرة: المرجع السابق، ص130.
45. جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص104.
46. محمود اسماعيل: الخوارج، المرجع السابق، ص116، فوزية لزغم، الخلدونية، ص65.
47. محمود اسماعيل:نفسه، ص –ص 120-220.
48. جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص104، فوزية لزغم: الخلدونية، ص65.

49. أما عن كتاب أبي زكرياء فيستغرب اسماعيل العربي الذي حققه بقوله: "من الغريب أن الكاتب الذي يقدم لنا صفحات ثمينة عن العبيديين في الشرق، لا يذكر قليلا أو كثيرا عن دولة الأدارسة و لا عن علاقات هذه الدولة بالرستميين الذين كانت تتعايش معهم في سلم و وئام، و هذا الصمت يحيرنا، خصوصا إذا اعتبرنا أن الأدارسة كانوا مثل الرستميين و بني مدرار في سجلماسة، جميعا يقاومون عدوا مشتركا غزا أراضيهم وشتت شمل أرسهم الحاكمة، و أكثر من ذلك، فإن الكتاب لا يعطينا سوى صورة غامضة عن تيهرت في أيامها الأخيرة، قبل أن يدمرها العبيديون، والكتاب لا يذكر شيئا عن علاقات تيهرت بالخلافة الأموية في الأندلس، تلك العلاقات التي كانت نتيجة لظهور قوة العبيديين و لرغبة قرطبة في إقامة حواجز بينها و بينهم في أبعد نقطة ممكنة، أبو زكرياء: المصدر السابق، ص35.
50. محمود اسماعيل: المرجع السابق، ص147- 148.
51. نفسه، ص119.
52. ابن خلدون : العبر، ج6، ص248.
53. محمد بن عميرة : المرجع السابق، ص- ص 128- 153.
54. ابن خلدون: العبر، المصدر السابق، ج6، ص248.
55. محمد بن عميرة: المرجع السابق، ص154، فوزية لزغم: المرجع السابق، ص65.
56. محمد بن عميرة: نفسه، ص نفسها.
57. فوزية لزغم: الخلدونية، ص68.
58. محمد بن عميرة : المرجع السابق، ص128- 129.
59. محمود اسماعيل: المرجع السابق، ص321.
60. ابن الصغير: المصدر السابق، ص93- 94.
61. ابن الصغير : المصدر السابق، ص- ص 118- 120.
62. أبو زكرياء: المصدر السابق، ص98.
63. فوزية لزغم : المرجع السابق، ص69، عيسى بن الديب و آخرون: الحواضر و المراكز الثقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط، منشورات المركز الوطني

للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص50.

64. عيسى بن الديب: نفسه، ص نفسها.